المحاضرة الخامسة

الإستراتيجية كنظرية و مذهب

يجمع الكثير من مؤرخي الإستراتيجية على أن المفاهيم التي ظهرت حولها هي ناتجة عن الفكر الاستراتيجي وعن الإستراتيجية كعلم . أو بشكل آخر ، الإستراتيجية هي معرفة في خدمة الفعل أو التطبيق للإستراتيجية كفن . عمليا ، العلم الاستراتيجي يتألف من جانبين مختلفين أو متميزين عن بعضهما ، وقد دعاهما Foch بالنظرية والمذهب .

النظرية

بشكل عام النظرية تهدف إلى تعميق مفاهيم و مناهج معينة ، وتريد الوصول إلى معرفة يمكن استخدامها بشكل عام و شامل . إن أسس النظرية يمكن أن تكون متعددة و لكن مع ذلك يمكنها أن تؤسس نظرية موحدة . و بناء نظرية موحدة هو عمل في غاية الصعوبة .

عرف أحد علماء السياسة المعاصرين النظرية بأنها ": على الأقل مخطط ، برنامج لتسجيل ، تصنيف وترتيب المعطيات و المعارف " . أيضا النظرية ، على الأقل ، تستطيع الحصول على قوة تنظيمية وقيمة نقدية .

و يمكننا تنظيم وظائف النظرية حول ثلاثة محاور وفق وظائف اللغة :

أولا : وظيفة التعبير : فالوصول إلى الكتابة ليس تغيير بسيط،بل يجبر الكاتب ببذل جهد كبير وصارم . وهنا لا بد من الإشارة إلى أن العسكريين يكتبون بشكل أكثر بساطة وعدم تعقيد ، من رجال الدولة أو الدبلوماسيين، وهذا يعني أنهم بحاجة وبشكل قوي إلى نظرية .فوظيفة التعبير ، إنها النظرية الإستراتيجية في ذاتها أو هي نفسها،وهذا يعود للشخص الذي يكتبها أو يبنيها .

ثانيا : وظيفة الاتصال : ومن خلال هذه الوظيفة" المعلم"ينقل معرفته إما إلى تلاميذ مختارين،كما كان في الزمن القديم ، أو على قراء لا يعرفهم،كما حصل مع بداية العصور الحديثة .وتحول هذه الوظيفة من الحالة الشفهية على الكتابية حتى يتم ضمان وصول الرسالة ومعرفة أصحابها أو منظريها بشكل أفضل .

ثالثا : وظيفة التمثيل : هذه الوظيفة تتخيل رموزا أو صورا إستراتيجية لم يتم وجودها بعد . هذا البعد مرتبط بتحولات اجتماعية/سياسية تتعلق بتغيرات فن الحرب . وظيفة التمثيل أخذت أهمية كبيرة بعد النمو السريع في التقنية،ففي العالم الأكثر تعقيدا ، الإستراتيجية تحتاج أكثر من أي وقت على مساندة نظرية تمثلها أو تقدمها.

إن هذه الرؤية للنظرية وأهميتها تجعلنا نطرح السؤال التالي :ما هي غاية النظرية ؟ وهل هناك مقاربات مختلفة لهذه الغاية ؟ المقاربة " الواقعية " تقودنا للحديث عن الاختلاف و التنوع في البشر ، ومدى قدرة النظرية على أن تعمم حيث تجردها سيصبح أكثر ضعفا ، وربما تتحول إلى تاريخ . أما المقاربة "المثالية "هي أكثر طموحا ، ولكنها أكثر صعوبة أيضا . فهي تتطلب دقة كبيرة في توظيف المفاهيم، هذه المفاهيم التي سيتم إدراكها كأفكار عامة ولكن ليست مطلقة .

إن النظرية تفترض جهدا من التفكير حول المفاهيم وحول المناهج أو الطرائق والتي يصعب تحقيقها في الكثير من الأحيان . إذا من الضروري وداخل التمييز الجوهري بين المذهب والنظرية أن نجري عملية من التصنيف أكثر دقة . بمعنى أننا نميز بين النظرية الإستراتيجية و التحليل الإستراتيجي ، وذلك وفق درجة الدقة والصفاء الفكري . فالمنظر الإستراتيجي يسعى لتقديم عمل إبداعي وفق تفكير منهجي منظم ، بينما المعلق الإستراتيجي له حدود تقف عند دراسة حالة معينة ، معتمدا على نظريات أو منظرين إستراتيجيين .

المذهب

ورد في الموسوعة العسكرية السوفييتية تعريفا للمذهب بأنه : " نظام من وجهات النظر التي تتبناها الدولة خلال فترة زمنية معينة، منطلقا من الأمور الجوهرية، الأهداف وطبيعة حرب ما قادمة، أيضا تحضير البلاد و القوات العسكرية لهذه الحرب ووضع الوسائل الممكنة ." أما الولايات المتحدة فقد عرفت المذهب " هو الدليل من اجل قيادة الحروب والعمليات الأخرى غير الحروب."

فى الواقع ، تربط المذهب علاقة قوية بالنظرية : فالمذهب يحتوي عادة على النظرية بشكل واضح أو مبطن ، مباشر أو غير مباشر . ولكن هذه العلاقة بين طرفي علم الإستراتيجية لم تتطور بشكل مماثل في العالم المعاصر .

وهنا نستطيع القول أن النظرية هي بشكل جوهري عمل تراكمي،بمعنى أنها تستند في أجزائها على كتابات ماضية ، وعلى مفاهيم ومناهج من الماضي تم تعريفها مسبقا ، والهدف هو إغناء هذه النظرية ومحاولة وصولها إلى الكمال . على العكس من ذلك ، المذاهب تأتي بشكل متتال أو متعاقب ، أي بشكل متقطع، من غير أن نراها ترتبط بالمذاهب التي سبقتها أو التي تظهر وتنشر في مكان آخر، وحتى في الشكل العملي للعلاقة بين المذاهب ، القطيعة لا تكون نهائية .

إلا أننا نرى العلاقة بينها بطيئة ، ضعيفة وكل مذهب إذا أراد الارتباط أو الأخذ من مذهب آخر فيكون من خلال محاكاته أو تقليده. في النتيجة ، إن طرق ومناهج التعبير هي مختلفة بين الجانبين ، النظرية و المذهب . وتبقى النظرية الإستراتيجية هي قبل كل شيء فكر منفتح ، بينما المذاهب الإستراتيجية فيها الكثير من التستر على الأسرار و الأفكار ، وخاصة فيما يتعلق بالشؤون الدفاعية.

بالاستناد إلى تحليل العلاقة بين النظرية و المذهب ، نستطيع تحديد بعض الأمور المتعلقة بطريقة عمل المذهب . فعلى الخلاف من النظرية أو من النموذج الأمثل لها،المذهب لم يكن في أي يوم من الأيام حياديا ، فهو يدار ويحكم بواسطة مبدأ الفعالية و الثبات.